و للروح ارتواء

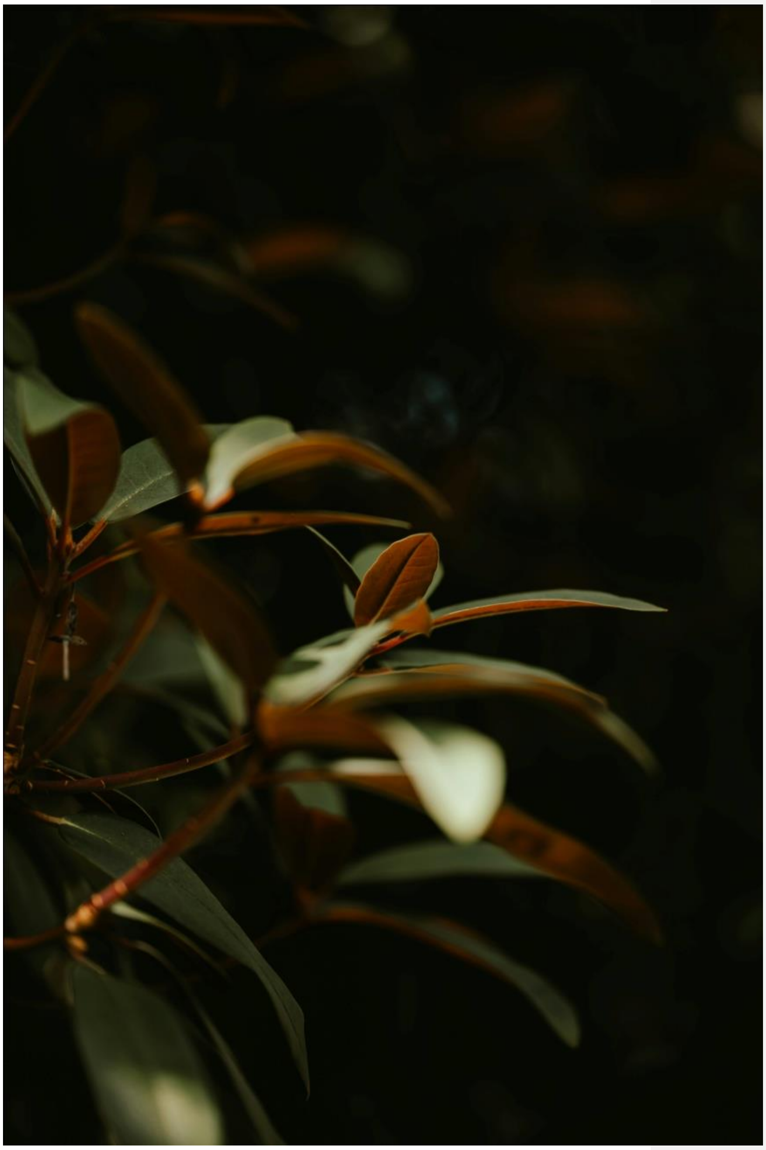

تفريغ محاضرة

جزاءً وفاقا

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٩-٠٣-١٤٤٣ هـ

جزاءً وفاقا

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ..
أما بعد:

كثيرًا ما نتناول في لقاءاتنا قاعدة من القواعد التي نعود إليها بين الفينة والأخرى، وهذه القاعدة تقول إن **الجزاء من جنس العمل**، هذه القاعدة كان يقول عنها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:
هذه القاعدة هي تمام العدل السماوي الذي قامت به السماوات والأرض.

فتعالوا في هذه الليلة نأخذ هذه القاعدة ونحاول أن نتدارسها في ضوء الكتاب والسنة، فنأخذ من أحاديث النبي - عليه الصلاة والسلام - ومن آيات القرآن الكريم ما يشير إلى هذه القاعدة، سَنُفاجأ بأن هذه القاعدة لا تلامس العقيدة فقط، ولا الفقه فقط، ولا التفسير فقط، وإنما سنجدها تلامس حياتنا من اللحظة التي نستيقظ فيها إلى اللحظة التي نعود فيها إلى النوم مرة أخرى.

هذه القاعدة كما قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:
الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل، وهذا قدر الله وشرعه، فلننظر في قوله عز وجل:
(وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (22)) النور

أي أنك تقوم بعمل العفو، وتقوم بعمل الصفح، فالعفو والصفح من جهتك يقابلها من الجهة الأخرى أن الله - عز وجل - يغفر لك ذنبك كما غفرت أنت لهؤلاء الناس.

ويقول الله عز وجل أيضًا:
(إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (149)) النساء

أي أنك إن عفوت، أو أبديت الخير، أو أخفيته، فإن الله - عز وجل - يقابلك بنفس هذا الذي فعلته، فيعفو عنك والله قدير بأن يتمم لك عملك، هذا في القرآن الكريم،

وأما في السنة النبوية فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

«مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ» [أخرجه البخاري، صحيح

«...، وَإِنَّ اللهَ وِتْرٌ، يُحِبُّ الْوِتْرَ[أخرجه مسلم، صحيح

«إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، ... »[أخرجه مسلم، صحيح

" أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، ..."[أخرجه مسلم، صحيح

فنلاحظ أن هذه صفات الله - عز وجل -، ويحب من يتصف بها، فمنها ما هو واضح تمامًا كالذي ذُكر أعلاه، وأيضًا منها قول الله عز وجل:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)) الصف

فلما زاغوا، جزاهم الله - عز وجل - من جنس عملهم فأزاغ قلوبهم،
وعلى الصعيد الآخر، قال الله عز وجل:

(لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ26) يونس

فنلاحظ الكلمات، هم قاموا بفعل الحسنى، فجزاهم الله - عز وجل - بالحسنى التي هي الجنة.
ويقول الله عز وجل:

(وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72)) الإسراء

ليس أعمى البصر وإنما أعمى البصيرة، فهو لم يختر طريق الله - عز وجل - ولم يختر الهداية، فهذا الإنسان الذي عميت بصيرته عن طريق الحق، كما كان في الدنيا أعمى، يحشره الله - عز وجل - يوم القيامة أعمى.

ومنها قول النبي صلى الله عليه وسلم: « ....، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، ...»[أخرجه مسلم، صحيح

وهذه من معاملاتنا الأخوية في الدنيا، تستر مسلما يسترك الله - عز وجل -، تعفو عن مسلم يعفو الله - عز وجل - عنك، تُيسِّر على إنسان حاجته أو كربته، ييسر الله - عز وجل - لك، ويسعى الله - عز وجل - في عونك كما تسعى أنت في عون أخيك.

وهذا هو المعنى الواضح للقاعدة{ أن الجزاء من جنس العمل}، ولكن هنالك معنى أخفى منه بقليل وفيه نوع من الغموض، ويحتاج لتأمل حتى نعرف من أين جاء معنى هذه القاعدة.

حينما نعلم أن المتكبرين في الدنيا من الطغاة والجبابرة يقول عنهم النبي عليه الصلاة والسلام: " يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورَةِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ مِنْ جَهَنَّمَ يُسَمَّى: بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، وَيُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، طِينَةَ الْخَبَالِ " [أخرجه الترمذي في سننه، وقال الألباني: حسن]

الذر: هو أصغر من النملة، فهذا الطاغية الذي ملأ الدنيا ضجيجًا، هذا المتجبر، المتكبر، يُحشر يوم القيامة في

شكل إنسان وبحجم أصغر من النملة، في يوم القيامة الذي تُجمع فيه البشرية كلها، فيطؤه الناس لأنهم لا يرونه أصلًا، وهو يهرب من أقدامهم، والناس تطأ عليه لأنها لا تراه، فهذا أول عذاباته في يوم القيامة.

طينة الخبال: هذه فيها الجزاء من جنس العمل، فما هي؟

هي عصارة أهل النار وهو القيح والدم الفاسد الذي يخرج منهم، ويكون هو شرابهم الذي يسقون منه، والخبال في اللغة العربية هو الفساد، والقيح والدمامل والدم الفاسد هو عبارة عن فساد في جسد الإنسان، فيقول المفسرون لهذا الحديث:

كما أفسدوا في الدنيا، سقاهم الله - عز وجل - من جنس ما أفسدوا، فليست القضية أنهم يحشرون كأمثال الذر لأنهم كانوا متكبرين بل لأنه غالبًا هؤلاء المتكبرون هم الذين يسعون في الأرض فسادًا ويحبون أن ينشروا الفساد في الأرض فيسقيهم الله - عز وجل - من جنس ما سقوا الناس وأفسدوا في حياة الناس.

وهنالك أيضًا أنواع من الجزاءات جاءت أقل من ذلك خفاءً، كقول الله - عز وجل-:

(وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) (12) الإنسان

فنحن نقول إن أهل الإيمان جزاهم الله - عز وجل - الجنة، ولكن ليس هذا هو التفسير المقصود في هذه الآية، ولكن عندما نقرأ في تفسيرها نجد هذه الكلمة الرقيقة واللطيفة فنجد أن الله - عز وجل - جعل نعومة الحرير جزاءً على ما قاسوه من خشونة الصبر، وسعة الجنة جزاءً على ما كانوا فيه من حبس الصبر، فمثلما حبسوا أنفسهم عن أشياء كانوا يشتهونها في الدنيا، أشياء غير مباحة أو علق الله - عز وجل - عليها بغضب أو لعن فهم يتركونها في الدنيا فكأنهم حبسوا أنفسهم عن شيء أحبوه فكان ذلك الجزاء هو جزاؤهم على صبرهم وحبس أنفسهم بأن صار لهم جنةً وحريرًا.

إذن هذه الأنواع الثلاثة هي التي ستمضي معنا في تقرير القاعدة.

يقول الله عز وجل في أول الآيات:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (126)) طه

مشكلة هذا الإنسان الذي حُشِر يوم القيامة أعمى، أنه أطفأ نور بصيرته في الدنيا، فقد كان في الدنيا مبصرًا ولكنه كان يرى بعينيه لا يرى بنور قلبه ولذلك رأى الحق ولكنه لم يتبعه، نحن طوال الوقت نقول في صلواتنا:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))الفاتحة.

غير المغضوب عليهم: الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه.

الضالين: الذين تاهوا عن الحق.

إذن هذا الإنسان لم يرَ الحق ولم يبحث عنه ولم يتبعه، فيحشر يوم القيامة أعمى ويقول له الله - عز وجل - نسيت أنت آياتي التي قد جاءتك في الدنيا وكذلك اليوم تنسى.

(قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (126)) طه

قال ابن القيم – رحمه الله تعليقًا على هذه الآية:

الجزاء مماثل للعمل، من جنسه في الخير والشر، فمن ستر مسلمًا ستره الله، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والأخرة، ومن نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن أقال نادمًا أقال الله عثرته، ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ولو في بيته، ومن ضار مسلمًا ضار الله به، ومن شاق شاق الله عليه، ومن خذل مسلمًا في موضع يحب نصرته فيه خذله الله في موضع يحب نصرته فيه، ومن سمح سمح الله له، والراحمون يرحمهم الرحمن ... إنما يرحم الله من عباده الرحماء ... .

أي:

ا - تعمل خيرًا تجده، تعمل شرًا تجده.

أقال نادمًا: أي سامح إنسان جاء إليه نادم، أي قد كان أخطأ في حقه وجاء إليه نادمًا فقبله وقبل اعتذاره، فيقيل الله - عز وجل - عثرته يوم القيامة.

٢- ومن يذهب لتتبع عورة أخيه ويحاول البحث عنها ومعرفتها وكشفها، تتبع الله - عز وجل - عورته ولو كان في بيته.

٣- ومن سعى في ضرر مسلم يسخر الله - عز وجل - له من يضره ومن يؤذيه جزاءً وفاقا.

٤- ومن شق على الناس ونكد عليهم بأوامر جديدة أو أي شيء يشق عليهم فيه، شق الله عليه.

وفي الحديث قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «اللهُمَّ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ»[أخرجه مسلم، صحيح]

الشاهد من حديث ابن القيم- رحمه الله:

أن كل شيء تعمله في الدنيا فإنه محسوب لك أو عليك.

أيضًا لو أتينا للذين اختاروا طريق الهداية أو اختاروا طريق الضلال، يقول الله - عز وجل - في هذه القاعدة:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9)} يونس

هذه الآية نحن نقرؤها في الجزاء فقط، وهي ليست في الجزاء فقط بأن يكون جزاؤهم الجنات، وإنما هداهم الله - عز وجل - إلى طريق الجنة لأنهم اختاروا طريق الهداية في الدنيا، إذن لا يضيع عند الله - عز وجل - شيء، حتى قراراتك التي تتخذها،

ولذلك نجد من الناس من يتردد في اتخاذ قراراته كأن يقول: لا أعرف متى سأموت، ربما أعيش أربعين عاما ولا أستطيع لهذا القرار كل هذا الوقت، وغيرها، وهو لا يعلم متى أجله، وفي المقابل كل خطوة أنت تقدمها لله - عز وجل - هي محسوبة لك، ولذلك هؤلاء الذين اختاروا طريق الهداية في الدنيا إنما يهديهم الله - عز وجل - يوم القيامة،

والآيات في ذلك كثيرة فعندما نقرأ آيات الجنة فانظر كيف يعبر القرآن عنها، فيقول الله - عز وجل-:

{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24)} الحج

عندما تأتي لفظة {هداية} يفسرها المفسرون بأن هذا أيضًا من جنس عملهم، فلما اهتدوا إلى الطريق الحق في الدنيا هداهم الله - عز وجل - في حياة البرزخ ثم في الحياة الآخرة، وفي المقابل يقول الله - عز

وجل -:

{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (124)} طه

تعالوا لننظر إلى الذين يبحثون عن حلق القرآن الكريم والذين يحاولون أن يستغلوا يومهم كاملًا في أربع وعشرين ساعة، فماذا لهم عند الله عز وجل؟ يقول النبي صلى الله عليه وسلم :"... وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ،،..."[أخرجه مسلم، صحيح]

فمن مثلاً ركب سيارته يريد أن يذهب إلى مكان يلتمس فيه علمًا كحفظ القرآن ومجالس الحديث، ولم يذهب إليها من أجل الدنيا بل من أجل أن يُحيي قلبه، فطريقه الذي يسلكه للوصول إلى هذه المجالس يسهل الله له به طريقا إلى الجنة.

وهذا ليس فقط في التماس العلم، بل حتى العمل بالعلم الذي أورثه الله - عز وجل - لنا، فمثلاً:

حين نتعلم معلومة، مثلًا سنة من سنن النبي - عليه الصلاة والسلام - أو شيئا من الفضائل فنطبقه في حياتنا، وكلما تعلمنا شيئًا من العلم الذي يقرب إلى الله - عز وجل - نثبّته في جدولنا اليومي، فبهذه الطريقة نجد أنفسنا نهتدي إلى الطريق الصحيح، ونصل لمرحلة نشعر بأن ما نقوم به صحيح، ونبدأ بفقد الشعور بالرغبة في عمل بعض الذنوب التي كنا نعملها سابقًا، فكيف نصل لهذه المرحلة؟ حين نعمل بما نعلم، فيدخل نور الإيمان في قلوبها ويصبح القلب يرى بنور بصيرته، ودليل هذا الكلام قول الله - عز وجل -:

{وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (66)} النساء

ويقول الله عز وجل:

{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ(3)} الطلاق

مع أن التقوى حابسة لأن الإنسان عندما يتقي الله - عز وجل - في شيء فإنه يحبس نفسه عن شيءٍ ما، فكان الجزاء من جنس العمل، لكنه مقابله وفيه نوع من المعاكسة، ومع ذلك جعل الله - عز وجل - له مخرجاً،

فمثلاً لو طُلِبَ منك فعل أمر ما مخالف لأمر الله - عز وجل - مقابل وظيفة أو ترقية، ولكنك امتنعت واتقيت الله - عز وجل - فيجعل لك مخرجًا، أي هذا الاتساع والمخرج الواسع في الموضع الذي حبس الإنسان فيه نفسه، ولم تقف الآية إلى هنا فحسب بل إن الله - عز وجل - سوف يرزقه من حيث لا يحتسب، فمثلاً تكون أعيننا معلقة على باب واحد مقفل لا يمكن أن نأتي منه، كباب السعادة وباب الشهرة وباب الرزق ولطالما أننا لا نستطيع عمل شيء فذلك يعني أن ذلك الباب موصد ومقفل، ولكن الله - عز وجل - يرزق من حيث لا نحتسب، فيفتح الله - عز وجل - أبوابا قد ظنناها موصدة، وهذا في الخير، فتعالوا لنرى أولئك الذين زاغوا فيقول ابن القيم عنهم:

قالوا **تكون الذنوب سببا لمقدمة الزيغ**، أي:

لم يكن انحرافهم مباشرا، لم يفسدوا بشكل مباشر، بل كان هناك شيء في البداية، كان هناك قابلية في الفساد فلم يستطع أن يمنع نفسه من الهوى والحرام، فبمجرد أنه فتح الباب خاض فيه ولم يكن لديه مشكلة،

فيقول الله - عز وجل -:

{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ(5)} الصف

فكان جزاؤهم من جنس عملهم.

وقال الله عز وجل في بني إسرائيل:

{فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ (13)} المائدة

نقضوا الميثاق الذي بينهم وبين الله - عز وجل -، فأصبح جزاؤهم أن الله - عز وجل - غضب عليهم ولعنهم، ولكن ليس هذا فقط، بل كان هناك إضافة وزيادة على هذه العقوبة أن الله - عز وجل - جعل قلوبهم قاسية، فهل تعلمون ماذا يعني هذا الكلام؟

معناه أنه الآن يفسق ويعصي ويفجر ويظن أنه على الحق، لأنه لا يشعر بتأنيب الضمير أوأنه قام بفعل خاطئ، فطالما كان القلب يشعر بتأنيب الضمير، فذلك يعني أنه لا يزال حيا ولا يزال يشعر.

وقال السلف:

إن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وثواب السيئة السيئة بعدها.

وهذه العبارة بالقدر الذي تحمل من الأمل بالقدر الذي تخيف، فبالقدر الذي فيها أمل أن الإنسان يفتح باب خير لنفسه فالله - عز وجل - يفتح له من أبواب الخير أيضًا، فثواب الحسنة الحسنة بعدها، من فرج كربة إنسان سيجد كربة أخرى تنتظره لتفريجها، وكذلك ثواب السيئة سيئة بعدها لأن القضية اختبار، فعندما تمشي قدم المرء في سيئة فربما تفتح له سيئة أكبر وأجمل فهنا يكون الامتحان الحقيقي هل يقف أم يستمر ويخبر نفسه بأنها آخر سيئة ويقف عندها ثم التي بعدها أجمل وأفضل إلى أن ينسى الإنسان نفسه.

ولذلك يحذر الله - عز وجل - من الشيطان ولم يحذر فقط من الشيطان وإنما أيضًا من خطوات الشيطان.

وفي آية أخرى يتحدث الله - عز وجل - عن الذين اعتدوا يوم السبت، وقصتهم هي:

عندما حرَّم الله - عز وجل - على اليهود صيد الحيتان يوم السبت، فكانوا يرمون شباكهم يوم الجمعة ويستخرجونها يوم الأحد وفي ظنهم أنهم لم يصطادوا يوم السبت، ولكن متى كان فعل الصيد في الحقيقة؟ كان يوم السبت لأن الحيتان لا تأتي إلا يوم السبت، وعندما نقرأ في تفسير سورة الأعراف في هذه الآيات نجد أن اليهود هنا لم يكفروا ولم يلحدوا، فلماذا مسخهم الله - عز وجل - من بشر إلى حيوانات؟ وهذه تعتبر من أغلظ العقوبات التي قد يُعاقب بها الآدمي أن يمسخ إلى بهيمة وينقص من كرامته كإنسان إلى أن يصبح دابة أو حيوان، فهم الآن لم يكفروا بالله - عز وجل - ولا بموسى - عليه السلام -، ولم يلحدوا، ولم يصبحوا شواذًا ويُعلِنوا شذوذهم، لم يفعلوا ذلك، هم تحايلوا فقط على أمر الله - عز وجل -، فمسخهم الله - تعالى - إلى قردة، فكما تحايلوا على الأمر من

جنسه، هم تحايلوا بمكيدة، فأحالهم الله - عز وجل - إلى حيوان يشبههم، فهذا الذي حصل لهم هو جزاءً وفاقا،

وذلك من أخطر علامات الساعة أن يكون في أمة محمد - عليه السلام - مسخ ويمسخون إلى قردة وخنازير، فمتى؟ عندما يكون العمل يشابه جنس هؤلاء البهائم حينما يرفع الناس في ذنوبهم ويرفعون في فسقهم، ولا يصبح لديهم قلوب تشعر بتقوى الله - عز وجل-.

إذن هذا الجزاء الذي حصل لهم وهذا الرجز العظيم إنما كان لأنهم تحايلوا على أمر الله - عز وجل - فأحالهم الله - عز وجل - إلى حيوانات.

فنرى آية من أجمل الآيات في تفسيرها، يقول الله - عز وجل -: "فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ"سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ" (سورة الأعلى : 9-10)

ويتجنبها من؟ "وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى" الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ " ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ" (سورة الأعلى:11-13)

هل سبق لك أن وقفت عند هذه الآية وتفكرت لماذا لا يموت فيها ولا يحيى؟

الجواب هو أن أهل النار خالدون فيها ومخلدون، ولكن هناك أيضا وجه آخر من جنس ما فعلوه، تكلم عنها ابن القيم فقال: لأن الحياة الحقيقية هي ليست حياة أنك أنت حي جسديًا، وإنما الحياة الحقيقية هي حياة الإيمان في داخل قلبك.

فهذا الإنسان الفاسق الفاجر الكافر الذي يُعذَّب في النار، كان جسده حيا في الدنيا مع الناس ولكنه ميت القلب، فلا يعتبر ميتا ولا حيا، لأنه لم يحيَ بنور الإيمان، فيعاقبه الله - عز وجل - يوم القيامة بأن يعذبه في النار فلا يكون فيها حيا ولا ميتا.

ونلاحظ الآن هذا الكلام، يقول الله - عز وجل - عنه في سورة الأنعام: "أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (122)

فسمى الله - عز وجل - الإنسان الذي لا يعرف الله ميت القلب، ولذلك الإنسان التائب الذي يعرف ربه يكون عنده نوع من الحياة القلبية، وهذا الذي يجعل له حياة، ولذلك كانوا يقولون <u>أن في الدنيا نعيما من لا يدخله لا يدخل نعيم الآخرة.</u>

أيضا من تطبيقات هذه القاعدة قول النبي ﷺ "«مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ، وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ، وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ، صُبَّ فِي أُذُنِهِ الآنُكُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ، وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ [ص:43] فِيهَا، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ» [أخرجه البخاري، صحيح]

من استمع الى حديث قوم وهم له كارهون صُب في أذنيه الآنك يوم القيامة، فحتى العقاب يوم القيامة يكون من جنس الفعل، فماذا فعل؟ هو فقط أرخى أذنه ليسمع لحديث بعض الناس وهم له

كارهون، فمن استمع الى حديث قوم وهم له كارهون صُب في أذنيه الآنك، وهو الحديد أو النحاس المذاب، فتخيل حديدا مذابا يصب في قنوات السمع جزاءً لأنك فقط استمعت إلى قوم وهم له كارهون؟

فنلاحظ هنا كيف أن الإسلام يحافظ على علاقاتنا الاجتماعية، فبمجرد أنك ترخي أذنك بأن تسمع لأناس لا يريدونك أن تسمع الكلام الذي يقولونه، فكيف لمن استمع لطرب وغناء وموسيقى وأشياء مما حرمها الله - عز وجل-؟ ودليل التحريم عليها قول النبي ﷺ " لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ، يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ، وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ، وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ، يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ، يَأْتِيهِمْ - يَعْنِي الفَقِيرَ - لِحَاجَةٍ فَيَقُولُونَ: ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا، فَيُبَيِّتُهُمُ اللَّهُ، وَيَضَعُ العَلَمَ، وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ "[أخرجه البخاري، صحيح]

فإذن قضية أصل استحلال المعازف واستحلال الغناء هذا دليل على نبوة النبي ﷺ الذي قال أنه سيأتي أقوام من أمتي يستحلونها، أي تكون هي الحلال وهي المطلوب وأي إنسان لا يفعلها كأنه هو الغلط وهو الإنسان الذي فهم الدين بشكل خاطئ.

أيضا من هذه التطبيقات قول النبي ﷺ في الحديث: " فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير" [أخرجه الترمذي في سننه، وقال الألباني: صحيح]

فربط الجزاء هنا بجنس العمل في قول الله - عز وجل-: "هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا" (سورة الأحزاب:43)

ماذا فعل معلم الناس الخير؟ ما هدفه؟ هدفه هو أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، فمن الذي تكفل بإخراجه؟ قال النبي ﷺ إن الله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير، كيف يصلون؟ جاءت في تفسير ذلك "هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا" (سورة الأحزاب:43)

فكما هو سعى في إخراج الناس، يكون جزاؤه أن الله - عز وجل - وملائكته يصلون عليه ليخرجوه وقلبه من الظلمات إلى النور، وشتان بين الاثنين، شتان بين من تكفل بإخراج الناس وبين من تكفل الله بإخراجه وهداية قلبه.

وحتى الحيتان في البحر تدعو له، والنملة في جحرها، وقد بيّن العلماء لماذا الحوت في البحر يدعو لمعلم الناس الخير؟ أو النملة في جحرها لماذا تدعو له؟

قالوا لأنه إنما يحصل الفساد في الأرض، إذا انقطع نور الوحي، فإذا الناس تركت دين الله - عز وجل -: "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" (سورة الروم:41)

فلذلك تتضرر الأرض من النفايات أو غيرها من التلوث الذي يحصل سواء في البحر أو في الجو بما كسبت أيدي

الناس، فحتى هؤلاء البهائم تذوق ويلات ما يسعى له الإنسان سواء حسيًا أومعنويًا، فهؤلاء يشعرون أصلا بصلاح أحوالهم ولذلك هم يصلون ويدعون لمعلمي الناس الخير الذين يمنعون الناس عن الإفساد.

وأيضا في هذه القاعدة :" أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ»[أخرجه البخاري، صحيح]

فسأل النبي ﷺ هذا الرجل الذي يقرأ دائمًا سورة الإخلاص في كل صلاة، فسأله لِمَ تقرؤها في كل ركعة؟ وهو إمام واشتكى عليه المؤمنون لأنه يقرؤها في كل صلاة، فقال: يا رسول الله إني أحبها لأنها صفة الرحمن، فهو يحب هذه السورة لأنها صفة الرحمن، لأن فيها اسم الله الصمد الأحد، وهذا الإنسان قاسى الشرك والكفر فتعني له لا إله الا الله الشيء الكبير، فقال له النبي ﷺ حُبك إياها أدخلك الجنة، فكما أنت أحببت صفة الرحمن فالله - عز وجل - أحبك فأدخلك الجنة.

إذن حتى مشاعر قلبك جزاؤها من جنسها، وفي لفظ آخر في نفس هذا الحديث قال النبي ﷺ أخبروه أن الله يحبه، فتخيل لو أتتك بشارة سماوية من السماء من سبع سماوات بأن الله يحبك، وعلى لسان من؟ على لسان النبي ﷺ والملائكة جاءت تبشر هذا الرجل أن الله يحبك كما أنت أحببت هذه السورة.

فحتى مشاعرنا القلبية فيما نُحِب من شرع الله - عز وجل - ومن سننه، كمحبة صلاة الضحى أو محبة الاستغفار، فما هو الشيء المعيّن الذي تحبه؟ وما هو فعله وتأثيره في قلبك؟ فقد يكون هذا هو مهر الجنة.

ولذلك من الأمور التي تأتي أيضا قول النبي ﷺ في قضية الترديد خلف المؤذن، «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»[أخرجه مسلم، صحيح]

فكما أنت تصلي على النبي ﷺ، تحل لك شفاعته يوم القيامة، وهذا يعني أن النبي ﷺ لن يشفع لكل أمته ولا لكل الناس، هم أناس معينين سيأذن له الله - عز وجل - لمن يشاء ويرضى، فيوجد ناس تشفع فيهم الأنبياء، وناس تتشفع فيهم الملائكة، وناس تتشفع فيهم جيرانهم وأهليهم وأصحابهم، وناس أصلا لن يأذن الله - تعالى - بالشفاعة لهم إلا بعد فترة محددة وقد لا تأتيهم إلا الشفاعة الأخيرة، الشفاعة الكبرى التي هي شفاعة الله - عز وجل-،

فلكي تسعى لتكون على الأقل من الزمرة الأولى التي يشفع لهم النبي ﷺ فحافظ على هذا العمل، ألا وهو

الترديد خلف الأذان، ثم تقول اللهم آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته، فالجملة هذه تجعل لك مكانا فيمن تحل له شفاعته يوم القيامة.

ولأن إنما الجزاء من جنس العمل ومن صلى على النبي ﷺ مرة صلى الله عليه عشرًا.

يقول النبي ﷺ في جزاء البخيل والمتصدق، ونلاحظ هنا كيف أن الجزاء من جنس العمل في المال وما يمسكه المرء في يده، يقول ﷺ في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-: «مَثَلُ البَخِيلِ وَالمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا المُنْفِقُ فَلاَ يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا البَخِيلُ فَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَتَّسِعُ» [أخرجه البخاري، صحيح]

فأما المتصدق فيُجازى بكرمه وسعة يده بسعة قلبه وانشراح صدره فيفرح بصدقته أكثر من متلقيها، وأما البخيل فيجد ضنك العيش وضيق المقام وضيق الصدر فحتى عندما ادخر ماله لم يفرح بذلك، يقول الله - عز وجل-: (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ) الشورى، ٣٠

(ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) الأنفال، ٥٣

إذن عقوبات الذنوب تُزيل النعم، فلا يزال قوم أنعم الله عليهم فعصوا الله أو تجرؤوا مع انفتاح الدنيا فغيروا شيئا من حياتهم فغيّر الله عليهم، فالله لن يقطع نعمة عن أحد إلا بسبب تغير القوم، فلم يقطع الغيم أو المطر مثلاً إلا بسبب ما غيروه بأنفسهم، وفي المقابل يقول عن العلاج إنه لن يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، إذن النعمة لن تتغير إلا إذا أنت غيرت، ولن ترجع حتى ترجع كما كنت.

يقول علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: **ما نزل من بلاء إلا بذنب، ولا رُفع إلا بتوبة**، فقد يكون زلزالا أو بركانا أو مصائب أخرى، لا يهم نوع البلاء، جيولوجيا أو غيره، فهذه كلها مسببات جعلها الله - عز وجل - أسبابا، فالناس الذين يتحدثون عن المسجد الأقصى وعن تحريره فتقول ماهي وظيفتي؟ القضية انتهت وليس بيدي شيء! لا، أي هدف كبير لديك؟! فلا نستطيع الانتصار على العدو إن لم ننتصر على أنفسنا، فعندما تتمنى ألا تموت حتى تصلي لو ركعة واحدة في المسجد الأقصى يجب أن يكون هناك عمل وهو أن تنتصر على نفسك وتغير ما فيك، فلذلك يجب أن تكون الأشياء الكبيرة لا تُقعِد الإنسان، ولدى كل إنسان ميدانه، وهو نفسه، فإن عجز عنها فهو عن غيرها أعجز، فإن صلحت فأنت أصلحت من حولك، فالصلاح معدٍ بعد ذلك.

وأيضًا من الأمور التي فيها الجزاء من جنس العمل قوله تعالى: (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) النور، ٣٠-٣١

هذه الآيتان جاءت في غض البصر عن الحرام بمعنى أن لا تراه، فلا عورات من الجسم ولا غيره، ثم ورد في الوجه التالي ذكر تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ) النور،٣٥

فقالوا من غض بصره بمعنى أطفأ نور عينيه أنار الله نور بصيرته فيطلق الله - عز وجل - له بصيرته فيكون له تميز بين الأشياء والأحكام ودقة في ذلك، فحتى لو سُئل وهو ليس لديه علم فيقول أشعر أنه كذا وكذا وفعلاً ترى أنه الجواب الصحيح، لماذا؟ لأن لديه شيئا من البصيرة أطلقها الله - عز وجل - فيه حينما غض بصره.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: **ترك النظر إلى محبوب لله يعوضه الله - عز وجل - بما هو أحب إليه، فيطلق له نور بصيرته، فأن ترى بقلبك الحق هو أمر لا يعطى لأي أحد.**

يقول: إن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ، فعندما تتبع الهوى يصدأ القلب وتصدأ المرآة فلا ترى الحرام حرامًا، بل قد ترى الحق باطلا والباطل حقا لأنه عندما يكون الصدأ، والذي هو الهوى على القلب لا يستطيع القلب الرؤية بشكل صحيح، وهذا الشيء خطير جدًا بأن يُعاقب عليه المرء وقلبه يصبح غير قائم بوظيفته الحقيقية في تحسس الحق،

عندما قال النبي ﷺ «اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ - ثَلَاثًا - الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ» [أخرجه الدارمي في مسنده، وقال الألباني: حسن لغيره].

أي قلب يقصد؟ ليس قلبًا صَدِئ، ولا قلبًا به هوى، القلب المستنير بنور الحق هذا الذي لو جاءه الشيخ وسأله السؤال وقال له يجوز، قال: لا! أنا أظن أن الشيخ لم يفهم السؤال، لا، مستحيل بأن يكون جائز، وإن أفتاك المفتون لأن القلب صحيح، لكن إن كان القلب صدئا ومهترئا ولا يستنير بنور الله، فهذا أصلا لو قلت له يمكن حتى الخمر حلال سيقول لك نعم، يعني إذا شربت كأسين لا بأس به.

أيضا يقول ابن القيم تعليقا على قول الله - عز وجل -: "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" (سورة فصلت : 34-35)

الآية تقول إن الحسنة لا تستوي مع السيئة فادفع بالتي هي أحسن، فيقول ابن القيم: فاعلم أن لك ذنوبًا بينك وبين الله - عز وجل - تخشى عواقبها، فأنت خائف من عواقبها وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك،

فإن الله - عز وجل - يغفر لك هذه الذنوب، ولا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة، بل إنك ترجو من الله أن ينعم عليك ويكرمك، فإذا كنت ترجو هذا من ربك وأن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه وتقابل به إساءتهم ليعاملك الله بهذه المعاملة.

ولذلك عندما ترى شخصا وتقول له أنت دائمًا تعفو عن الناس ولا تأخذ بحقك، الآن على صعيد الدنيا هذا صحيح، إن لم تكُن ذئبا أكلتك الذئاب، لكن الذي يرى بنور الآخرة وعنده مقاييس أخرى للدنيا، فهو لا يأبه بهذا الكلام، لأنه يأبه لشيء آخر بأن بينه وبين الله - عز وجل - معاملات أخرى ويرجو من الله - عز وجل - أن يغفر له ويعفو عنه ويكرمه، فلو أي إنسان أخطأ في حقي، فأنا الآن ليس من المهم لدي الانتقام منه أو أخذ حقي منه، فمباشرة تنظر له وتقول إذا أنا عفوت عنه فيا رب اعفُ عني، ويا رب إذا قابلت إساءته بإحسان، فكم يا ربي أسأت إليك؟ فقابل إساءتي بإحسان.

فهذا الشيء هو الذي أنت ترجوه من ربك فكما تعامل خلقه يعاملك الله - عز وجل -.

وأيضًا حينما تحدث النبي ﷺ عن فرحة التائب: " لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ " [أخرجه مسلم، صحيح]

هذا المثال سرده النبي ﷺ حتى يعبر عن فرح الله بتوبة عبده، فلما تقابل فرح الله بتوبة عبده في شريعتنا وبين شريعة الأوائل، ففي الأثر عن بني إسرائيل أن الله - عز وجل - يقول لأحدهم وأما الذنب فقد عفونا عنه وأما الود فلا يعود، أي أنا عفوت عنك أيها العبد لكن الود والمحبة التي كانت بين هذا العبد وبين ربه فلا تعود، فتخيل أنت لو إنسان عاملك بهذه المعاملة، فتكون أنت تشعر بالندم فيقول لك أنا عفوت عنك وحللتك، ولكن لا ترجُ مني أن أكون صديقك ولن تعود علاقتنا مثل السابق.

كيف يكون شعورك؟ كنت تشعر بالندم الشديد بالفعل وحريص على هذه العلاقة، فتشعر بنوع من العقوبة وتتعلم الدرس.

فتخيل لو أن الله - عز وجل - يعاملنا بهذه المعاملة، يقبل التوبة ولكن لا يعود الود ولا يحبك الله - عز وجل -، وهذا كان في شرع من قبلنا، أما في شرعنا، فالله - عز وجل - يفرح بتوبة العبد، فقال العلماء توبتك محفوفة بمحبتين:

1- أحبك الله - عز وجل - ابتداءً فزيّن لك التوبة.

جعل قلبك يشتاق إلى التوبة، لأنه لو أراد أن يختم على قلبك ويجعلك من الحزب السادر في غيِّه، لفعل، ولكن لأن هناك شيئا بينك وبين الله - عز وجل - فالله يحبك فيحرك قلبك، فتشتاق أنت إلى التوبة، مع أنك أذنبت وعصيت وتحسب أنك أصبحت منهم، فإذا قلبك يؤذيك، لا تريد هذا الطريق ولا تريد هذه الحياة وتتساءل من أنا؟ أنا لست مع هؤلاء ولا هؤلاء، وقلبك يتحرك، فالله - عز وجل - يحرك لك قلبك من الداخل فينكد عليك

شهوتك، فتفعله مع الناس وأنت غير مستمتع، ثم بعد هذا لا يزال القلب يمنعك لأن الله يحبك، فإذا زانت لك التوبة وتبت قَبِل الله منك توبتك، فيحبك الله على توبتك.

أحبك في الأولى فزين لك طريق التوبة، فلما أخذت القرار وتبت:

2- أحبك على توبتك فيقول الله - عز وجل-: "..... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" (سورة البقرة: 222)

فتخيل الآن توبتك كيف تكون محفوفة بمحبتين من عند الله - عز وجل-؟

أن يحبك فيزينها في قلبك ابتداءً، ثم يحبك إذا فعلتها بعد ذلك.

ولذلك محبة الله - عز وجل - هي السابقة لمحبة العبد لربه، قال ابن القيم في هذه التوبة: وها هنا دقيقة قل من يتفطن لها، فيوجد شيء هنا يرافق التوبة قليل من الناس يتفطن له، أن ما من تائب إلا ولابد له في أول توبته من عصرة وضغطة في قلبه، من هم أو غم أو ضيق أو حزن، ولو لم يكن إلا تألمه بفراق محبوبه، فينضغط لذلك وينعصر قلبه ويضيق صدره، فأكثر الخلق يرجع من توبته في هذه اللحظة.

فهنا ينعصر قلبه حتى يخرج كل ما فيه ويمتحن هنا هذا الامتحان الأخير، هل أنت صادق في توبتك أم لا؟ فيجب ألا نظن أن التوبة طريقها مفروش بالورود، ففي أول اللحظات ينعصر فيها القلب ويختبر الله - عز وجل - توبتك، فإذا صبر الإنسان على تلك الضغطة وإذا صبر على تلك العصرة أورثه الله - عز وجل - من السرور ومن الانشراح وراحة البال ما هو أضعاف ذلك، ولكن عنق الزجاجة أين؟ هي بتلك العصرة التي يعصرها في البداية.

يقول ابن القيم أن أكثر الناس إنما يرجعون عن التوبة في تلك اللحظة، في لحظة العصر، فيقول أنا هارب من الذنب بسبب ضيقة الصدر فأدخل في عصرة وفي ضغطة و شعور بالضيق؟ فهذا الشعور الآن هو شعور حقيقي لامتحان حقيقي، فاصبر قليلا وتمسك واستعن بالله - عز وجل - فستتجاوز هذا الشعور إلى ما وراءه من انشراح، فيقول ابن القيم "والعارف الموفق يعلم أن الفرح والسرور واللذة الحاصلة عقيب التوبة تكون على قدر هذه العصرة، فكلما كانت أقوى وأشد كلما كانت الفرحة واللذة أكمل وأتم".

وهذا فقط في جزاء التوبة.

قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً " [أخرجه البخاري، صحيح]

يقف الحديث هنا فلا تكملة له، فهنا نتساءل، الذي يأتي إلى الله - تعالى - هرولة ماذا يكون جزاؤه؟ فالحديث وقف على أنه ومن أتاني يمشي يعني خطواته بطيئة ولكنه يمشي، يقول الله - عز وجل - أتيته هرولة، فماذا لو

أكملنا الحديث؟ ومن أتى إلى الله - عز وجل - هرولة ومن أتى إلى الله بكلّيته بقلبه بمحبوباته بأوامر الله ونواهيه لمن رمى نفسه كله على الله - عز وجل -، ونزع هذا اللباس كله ولبس لباس الإسلام، هذا ما له عند الله - عز وجل - ؟ وكيف يأتيه الله - عز وجل -؟

فيقول ابن القيم - **هذا مما لا تفوقه الإشارة وإنما الظن بمن أعطي فكما جاد لحبيبه يعني كما جاد لله - عز وجل - بنفسه جاد الله عليه بفضله ونفسه.**

فلنتخيل الآن هذا الإنسان الذي غير حياته كلها لله، فكيف سيكون الله معه؟ وماله من التوفيق وكيف سيأتيه الله عز وجل؟ "ومن أتاني يمشي أتيته هرولة" لو أتيت أنت مهرولا، لو غيرت أمورا كثيرة في حياتك فكيف يكون الله - عز وجل - في ذلك؟

يقول ابن القيم -رحمه الله-: **وهذا الموضع هو سرّ السلوك وهو حقيقة العبودية.**

ونلاحظ أن الشهيد عندما بذل حياته كلها لله - عز وجل -،الشهيد الذي يبذل كل حياته لم يترك شيئا فيجازيه الله - عز وجل - من جنس ما بذل، فلما أفنى حياته لله، جازاه الله بأنه لا يموت، نحسبهم أمواتا وهم أحياء عند الله، ماتت أجسادهم ولكنهم أحياء.

يقول الله تعالى: "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ" (آل عمران:169)

ولذلك من بذل لله شيئا عوضه الله خيرًا منه، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

قال ابن القيم -رحمه الله: وَمَن كانَ مُسْتَوْحِشًا مَعَ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ إيّاهُ في هَذِهِ الدّارِ فَوَحْشَتُهُ مَعَهُ في البَرْزَخِ يَوْمَ المَعادِ أعْظَمُ وأشَدُّ، ومَن قَرَّتْ عَيْنُهُ بِهِ في " هَذِهِ الحَياةِ " الدُّنْيا قَرَّتْ عَيْنُهُ بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ وعِنْدَ المَوْتِ ويَوْمَ البَعْثِ فَيَمُوتُ العَبْدُ عَلى ما عاشَ عَلَيْهِ، ويُبْعَثُ عَلى ما ماتَ عَلَيْهِ، ويَعُودُ عَلَيْهِ عَمَلُهُ بِعَيْنِهِ فَيَنْعَمُ بِهِ ظاهِرًا وباطِنًا. فَيُورِثُهُ مِنَ الفَرَحِ والسُّرُورِ واللَّذَّةِ والبَهْجَةِ وقُرَّةِ العَيْنِ والنَّعِيمِ وقُوَّةِ القَلْبِ واسْتِبْشارِهِ وحَياتِهِ وانْشِراحِهِ واغْتِباطِهِ ما هو مِن أفْضَلِ النَّعِيمِ وأجَلِّهِ وأطْيَبِهِ وألَذِّهِ، وهَلِ النَّعِيمُ إلّا طِيبُ النَّفْسِ وفَرَحُ القَلْبِ وسُرُورُهُ وانْشِراحُهُ واسْتِبْشارُهُ.

نحن نريد أن نثبّت قاعدة، وهي "**مثلما تكون هنا، ستكون هناك**" وكما يكون عملك ستجازاه، خيرًا بخير وشرًا بشر، فإن آثرت الله - عز وجل - آثرك الله، وإن آثرت على الله آثر الله عليك.

ويجب أن نعرف ما عاقبة مصاحبة الذنب؟ فبعض الناس لا تريد أن تترك ذنوبها، ولا أن تترك معاصيها، وليس لديها استعداد أن تغير شيئا من حياتها.

"وَمَن كانَ مُسْتَوْحِشًا مَعَ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ إيّاهُ في هَذِهِ الدّارِ فَوَحْشَتُهُ مَعَهُ في البَرْزَخِ يَوْمَ المَعادِ أعْظَمُ وأشَدُّ"، فإذا كنت في الدنيا وهذه وحشتك مع الله - عز وجل -، تتخيل في القبر كيف ستكون الوحشة بينك وبين الله؟ تتخيل يوم القيامة في لحظة الجزاء عندما ينكشف الستار بينك وبين الله - عز وجل - كيف ستكون الوحشة بينك وبينه؟ فكما ستكون في هذه الدنيا ستكون هناك.

"وَمَن قَرَّتْ عَيْنُهُ بِهِ في " هَذِهِ الحَياةِ " الدُّنْيا قَرَّتْ عَيْنُهُ بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ وعِنْدَ المَوْتِ ويَوْمَ البَعْثِ فَيَمُوتُ العَبْدُ عَلى ما عاشَ عَلَيْهِ، ويُبْعَثُ عَلى ما ماتَ عَلَيْه"، وهذا تمام العدل، أنه مثل ما تكون في حياتك الدنيا تكون في الآخرة، الأمر الذي تفعله يوميًا هو الذي ستموت عليه، فيجب ألا يتوقع الإنسان أن خاتمته ستكون غريبة، هو ما تفعله يوميًا تموت عليه، الشيء القريب من قلبك الذي دائمًا تفعله هو الشيء الذي يُختم لك عليه.

"ويُبْعَثُ عَلى ما ماتَ عَلَيْهِ، ويَعُودُ عَلَيْهِ عَمَلُهُ بِعَيْنِهِ فَيَنْعَمُ بِهِ ظاهِرًا وباطِنًا. فَيُورِثُهُ مِنَ الفَرَحِ والسُّرُورِ واللَّذَّةِ والبَهْجَةِ وقُرَّةِ العَيْنِ والنَّعِيمِ وقُوَّةِ القَلْبِ واسْتِبْشارِهِ وحَياتِهِ وانْشِراحِهِ واغْتِباطِهِ ما هو مِن أفْضَلِ النَّعِيمِ وأجَلِّهِ وأطْيَبِهِ وألَذِّهِ، وهَلِ النَّعِيمُ إلّا طِيبُ النَّفْسِ وفَرَحُ القَلْبِ وسُرُورُهُ وانْشِراحُهُ واسْتِبْشارُهُ"، فإن كنت تبحث عن راحة البال وانشراح الصدر، فراجع حياتك وراجع الأشياء التي تفعلها، وتأكد أن الله - عز وجل - لا يضع سعادتك في معصية أبدًا، وأي طريق تظن أن السعادة فيه عن طريق شيء من الحرام فهذا طريق مسدود، وهذا تخدير وقتي، إنما يتخدره الإنسان ويخدرك الشيطان فيه ليجرّك لما وراءه، هذا طريق لا منتهي يجعل الإنسان فيه أضعف وأضعف حتى يصبح الإنسان كجثة هامدة بلا حياة فلا يموت فيها ولا يحيا.

وأمّا الذي تنوعت أعماله المرضية لله - عز وجل - في هذه الدار فتتنوع له ثوابات الجزاء في الآخرة، فلا يكون النعيم في الجنة في لذة واحدة على حسب ما نوّع من مرضاة الله - عز وجل-، تمامًا كما أن الذي فعل الذنب ونوّع على نفسه من الذنوب، فلم يكتفِ بنوعٍ واحد، فأيضا في الآخرة يتنوع العقاب للإنسان بحسب ما كان يعمل في الدنيا.

ولذلك من خفّ حمله من الأوزار والذنوب في الدنيا، خفّ حمله يوم القيامة، ومن استظل بالطاعة وبالقرآن في الدنيا، استظل في ظل العرش يوم القيامة،

وهذه حقيقة القاعدة حينما نقول أن الجزاء من جنس العمل ولذلك يقول الله تعالى: "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿24﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿25﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿26﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿27﴾" (الإنسان: 24- 27)

اليوم الثقيل لمّا أثقلوا على أنفسهم من هذه الأعمال غير المرضية لله - عز وجل - فثقلت عليهم وصار يوم القيامة يومًا ثقيلًا، وفي المقابل لا يعاني الذين آمنوا وعملوا الصالحات يوم القيامة، وتمضي عليهم الخمسون ألف سنة يوم القيامة كأنها ساعة في عصر، كأنها ساعة في مقيل، فهذا اليوم إمّا أن يكون يوما ثقيلا أو يوما خفيفا على ماكنت تفعله في الدنيا.

وكما قال بن القيم -رحمه الله-: **ومن عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه.**

نتدارسها لئلا يُفاجأ الإنسان بأي شيء تكون خاتمته، وبماذا يمكن أن يكون الجزاء يوم القيامة، فالإنسان يعرف ما الذي يعيش عليه، حتى يكون جنس الجزاء مما تفعله، فلا تحقرن من المعروف شيئًا، ولا تستكثر خيرًا تفعله من المعروف حتى مع الناس لأنه كما تكون مع الناس يكون الله معك.

أسأل الله أن ينفعني وإياكم بهذه المدارسة، وأن يختم لنا بخير والحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها